بين الأدب والتاريخ

إيثاخ وأشناس

تحقيق تاريخى — بقلم الأستاذ الشيخ عبد الوهاب النجار

الأستاذ السابق بدار العلوم وأستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

قرأت فى أول الديوان الحافل بالشعر الجيد ، والخيال البديع ، والأدب الرائع (ديوان صَرْدُرّ) الذى نشرته دار الكتب أخيرا ، من قصيدة له يمدح فيها الإمام القائم بأمر الله العباسى قوله (ص ٤) :

يؤيده الرحمن فى كل موقف بنصر يعود الليثُ وهْو به خاسى
جيوش من الأقدار ، تفنى عداته بلا ضرب إيثاخ ولا طعن أشناس

ووجدت إيثاخ (بالثاء المثلثة) كما وجدت المصحح الفاضل قد كتب هذه الجملة (« إيثاخ وأشناس » كذا بالأصل ولعل الأولى أثباج جمع ثبج وهو ما بين الكاهل إلى الظهر ، والثانية لم نوفق إلى مراد الشاعر منها .)

والحقيقة أن « إيثاخ » (بالثاء المثناة من فوق) و « أشناس » علمان من أعلام قواد الجيوش فى دولة المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد ، والواثق والمتوكل ابنى المعتصم ؛ وكل منهما كان ملء سمع الأرض وبصرها ، وكل منهما قد ولى على البلاد المصرية ، وكان مرجع الشؤون المهمة فيها وإن كان لم يحضر إليها ، وكل منهما كان له من السلطان فى دار الخلافة ما يحقق فيه قول الصفى الحلى :

إن ادّعوا جاءت الدنيا مصدقة وإن دعوا قالت الأيام آمينا

لذلك أردت أن أعرّف بهذين القائدين ، وأبين ما كان لكل منهما من مكانة مكينة فى أيام عزه ، وازدهار سعده ، وإقبال الدهر

عليه ، وما آل إليه أمره ، لما فى ذلك من عظة وعبرة .

إيتاخ — ذكر اسمه عشر مرات فى الجزء الثانى من كتاب النجوم الزاهرة لابن تَغْرِى بَرْدِى فى صفحات ٢٣٢ و ٢٤٣ و ٢٥٥ و ٢٥٦ و ٢٦٥ و ٢٧٤ و ٢٧٥ و ٢٧٦ و ٢٧٨ و ٢٨٨

وكان أصل إيتاخ مملوكا من الخَزَر طباخا لسلام الأبرش ، فاشتراه المعتصم فرأى له رُجْلَةً وبأسا ، فقربه ورفعه . وكان المعتصم تعجبه الشجاعة والقوة ويحب المتصف بهما .

ثم إن المعتصم لما قاد الجيوش لفتح عَمُّورِيَّة من بلاد الروم جعل إيتاخ قائدا على الميمنة ، وقد أبلى إيتاخ فى فتح عَمُّورية بلاء عظيما ، وخاصة فى اليوم الثالث من أيام فتح تلك المدينة . قال ابن الأثير فى الكامل (صفحة ١٦٥ ج ٥) : « فلما كان اليوم الثالث كانت الحرب على أصحاب المعتصم ، ومعهم المغاربة والأتراك ، وكان القيم بذلك إيتاخ ، فقاتلوا وأحسنوا ، واتسع لهم هدم السور ، فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت الجراحات فى الروم . »

وقد ولى المعتصم بالله إيتاخ أمورا كانت تهمه ، فأظهر فيها كفاية ودراية بالحرب والجلاد .

ففى سنة أربع وعشرين ومائتين أمر المعتصم إيتاخ بالمسير إلى جعفر ابن فَهْرَجِس وقتاله ، فتجهز وسار إلى الموصل سنة خمس وعشرين ، وقصد جبل دَاسِنْ وجعل طريقه على سوق الأحد ، فالتقى مع جعفر ، وكان بينهما قتال شديد قتل فيه جعفر وتفرق أصحابه ، فانكشف شره وأذاه عن الناس ، وأوقع إيتاخ بالأكراد وحشر الأسرى والنساء والأموال إلى تكريت .

وجعفر بن فَهْرَجِس هذا كردى شق عصا الطاعة بأعمال الموصل .

فوجه إليه المعتصم بعبد الله بن السيد الأزدى فى جيش عظيم فأوقع به جعفر ثم كانت منيته على يد إيتاخ .

وكان من أراد المعتصمُ والواثقُ والمتوكلُ قتله سلمه إلى إيتاخ ، فقد قتل على يده مثل عُجَيْف بن عَنْبَسة من قواد المعتصم ، والعباسُ ابن المأمون بن هارون وستأتى قصته ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم ثم الواثق ثم المتوكل .

وكان إيتاخ من القواد الذين اعتزم الأفشينُ القائد التركى أن يدس لهم السم فى الطعام ليقتلهم إذا لم يظفر بقتل المعتصم .

ذلك أن الأفشين كان قائدا عظيما من مقدمى القواد عند المعتصم . وقد أحس الأفشين تغير المعتصم فاعتزم أن يقتله بالسم فى وليمة يصنعها للمعتصم وقواده ، فاذا لم يحضر المعتصم ، وفاته ما يرجو من قتله ، فعل ذلك بقواده مثل أشناس وإيتاخ . فأحس ذلك أحد خدم الأفشين ، واطلعُ على ما دبره أستاذه ، فأطلع على ذلك أوَاجنَ الأشروسنى . فعزم أوَاجن على إفساد أمر الأفشين ، وقال لخادم الأفشين : لا يتم هذا الأمر .

فأما تابع الأفشين فأعلم سيده ، وأما أواجن فيمم دار المعتصم ليلا ليطلعه على ما دبره الأفشين عليه وعلى رجال دولته . ولقى إيتاخ فقال له إن لأمير المؤمنين عندى نصيحة . فقال له قد نام أمير المؤمنين . فقال أواجن : لا يمكننى أن أصبر إلى غد . فدق إيتاخ الباب على بعض من يخبر المعتصم بالحال . فقال المعتصم : قل له ينصرف الليلة إلى غد . فقال إن بقيت إلى غد ذهبت نفسى . فأمر المعتصم أن يبيت أواجن عند إيتاخ ليغدو به عليه ففعل .

فلما أصبح أواجن أفضى إلى المعتصم بجلية الحال ، وقُبض على الأفشين ، وحبس فى دار إيتاخ مدة إلى أن أخرج ميتا . وكان القبض على

الأفشين سنة ٢٢٥ وموته سنة ٢٢٦ وقد صلب بعد موته وأحرق بالنار.

وقد ولى الخليفةُ الواثقُ بالله بنُ هارون الأميرَ إيتاخَ اليمنَ، وذلك قبل أن يوليه مصر، لأن ولاية مصر آلت إليه فى سنة ٢٣٠ بعد وفاة أشناس. ولا عبرة بقول ابن تَغْرِى بَرْدى فى ص ٢٥٦ إنه ولاه اليمن مضافا إلى مصر؛ فإنما ولاه مصر فى سنة ٢٣٠ بعد وفاة أشناس. وقد بقى إيتاخ واليا على مصر من سنة ٢٣٠ إلى أوائل سنة ٢٣٥ وكان يرسل إلى مصر نوابا عنه.

وقد جاء فى صفحة ٢٧٥ من الجزء الثانى من النجوم الزاهرة: «فى سنة أربع وثلاثين ومائتين فوض الخليفة المتوكل لإيتاخ الكوفة، والحجاز، وتهامة، ومكة، والمدينة، مضافا على مصر ودُعِى له على المنابر» أى مع الدعاء للخليفة. وقد علم مما سبق أنه كان مولى على اليمن أيضا. وكانت إمرته على الصلاة والخراج معا.

وكان لإيتاخ أيضا المعونةُ[1] بسامرا مع إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبى وكان مع المتوكل فى مرتبته، وإليه الجيشُ، والمغاربة، والأتراك، والأموال، والبريد، والحجابة، ودار الخلافة.

فلما تمكن إيتاخ من نفس المتوكل، حدث أن الخليفة شرب معه وعربد عليه، فهمّ إيتاخ بقتله. فلما أصبح المتوكل قيل له ما كان منه وماهم به إيتاخ فاعتذر إليه المتوكل وقال له: أنت أبى وأنت ربيتنى. ثم دس المتوكل إليه من يحسّن له الحج، فاستأذن المتوكلَ، فأذن له وصيره أمير كل بلد يدخله، وخلع عليه، وسار العسكر جميعه بين يديه، وأظهر له غاية التكريم والإجلال فكان إيتاخ كالثور يُزَيَّنُ ليذبح.

---

(١) المعونة تقابل فى نظامنا الحاضر وزارة الأشغال.

فلما عاد إيتاخ من حجه وقرب قدومه على المتوكل بسرَّ مَنْ رأى كتب المتوكل إلى إسحاق بن إبراهيم ببغداد يأمره بحبس إيتاخ. وأنفذ المتوكل كسوة وهدايا إلى إيتاخ فى طريقه تأمينا له. فلما قرب من بغداد خرج إسحاق بن إبراهيم إلى لقائه، وكان إيتاخ أراد المسير على الأنبار إلى سامرا. فكتب إليه إسحاق: إن أمير المؤمنين قد أمر أن تدخل بغداد، وأن يلقاك بنو هاشم ووجوه الناس، وأن تقعد لهم فى دار خُزَيمة بن خازم، وتأمر لهم بالجوائز. فجاء إلى بغداد ولقيه إسحاق بن ابراهيم فلما رآه اسحاق أراد أن يترجل له فحلف عليه إيتاخُ أن لا يفعل، وكان فى ثلثمائة من غلمانه وأصحابه. فلما صار بباب دار خزيمة وقف إسحاق وقال أصلح الله الأمير، يدخل؛ فدخل إيتاخ ووقف إسحاق بالباب ومنع أصحابه من الدخول عليه، ووكل بالأبواب، وأقام عليها الحرس. فحين رأى إيتاخ ذلك قال: « قد فعلوها. » ولو لم يفعلوا ذلك ببغداد ما قدروا عليه. وأخذوا معه ولديه منصورا ومُظفّرا. وأرسل إيتاخ إلى إسحاق: قد علمتَ ما أمرنى به المتعتصم والواثق فى أمرك، وكنتُ أدافع عنك، فلينفعنى ذلك عندك فى ولدىّ. فأما أنا فقد مر بى شدة ورخاء فما أبالى ما أكلت وما شربت؛ وأما هذان الغلامان فلم يعرفا البؤس، واجعل لهما طعاما يصلحهما. ففعل إسحاق ذلك وقيّد إيتاخ وجعل فى عنقه ثمانون رطلا، فمات فى جمادى الآخرة سنة ٢٣٥. وأشهد إسحاق جماعة من الأعيان أنه لاضرب به ولا أثر. وقال ابن الأثير: « وقيل سبب موته أنهم أطعموه ومنعوه الماء حتى مات عطشا ». وعلى هذه الطريقة كانت نهاية إيتاخ بعد ذلك العز الأقعس والنفوذ الذى لاحد له.

أشناس — أما أشناس فهو أبو جعفر أشناس التركى المعتصمى . اشتهر بالقوة وحب المغامرة فى الحرب وملاقاة الحتوف ، فقربه المعتصم ورفع درجته ، وصار من قواده العظام ورجال دولته ، وولاه الولايات السنية ، وولاه مصر : صلاتها وخراجها وبقيت فى حوزته نحو اثنتى عشرة سنة وهو يرسل إليها نوابا عنه يلون صلاتها وخراجها . وعظمت منزلته بين قواد المعتصم ، مثل الأمير إيتاخ ؛ وكان الخلفاء يجلونه ويؤثرونه بالمراتب السنية .

قال ابن تَغْرِى بَرْدِى فى صفحة ٢٤٥ من الجزء الثانى من كتابه النجوم الزاهرة : « فى سنة ثمان وعشرين ومائتين استخلف الخليفة هارون الواثقُ على السلطنة أشناسَ الذى كان إليه امر مصر يولى فيها من اختار ، وألبسه وشاحين بجوهر » . وقال فى صفحة ٢٣٢ من الجزء الثانى أيضاً : « أما التعريف بأشناس فإنه كان من كبار القواد بحيث إن المعتصم جعله فى فتح عمورية من بلاد الروم على مقدمته » . وكان يُدْعَى لأشناس على منابر مصر كما فى صفحة ٢٢٩ من الجزء الثانى من النجوم الزاهرة وقد ذكر ابن تغرى بردى أشناس ١٢ مرة فى الجزء الثانى من كتابه النجوم الزاهرة وهى صفحات (٢٢٩ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٥٢ ، ٢٥٦ ، ٢٧٤ ، ٢٨٨ ، ٣٣٦)

وأظهر الوقائع التى ظهر فيها بلاء أشناس وقوة مراسه وإقدامه حرب عمورية : ذلك أن المعتصم بالله محمد بن هارون سار فى سنة ثلاث وعشرين ومائتين (على أوسط الأقوال) من سر من رأى ، وتجهز جهازا لم يتجهزه خليفة قبله قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والرَّوَايا والقرب وغير ذلك ، وجعل على مقدمته أشناس (ص ٢٦٢ ج ٥ ابن الأثير) .

فلما صار أشناس بمرج الأسقف ورد عليه كتاب المعتصم يحذره ملك الروم، لأنه يريد كبس عسكر المسلمين، فحذر وأرسل أحد قواده، فأتى ببعض الأسرى وفيهم شيخ كبير، فلما قتلهم ولم يبق إلا هذا الشيخ، قال له: ما تفعل بقتلي وأنتم في ضيق؟ إني أدلك على مكان فيه قوم من أهل أنقرة جلوا عنها إليه، وفيه الكلأ والماء والطعام. فوجه معه أشناس جندا مع مالك بن كيدر، وأمره أن يطلق الشيخ إذا دله على ما وصف. ففعل وانتهى بهم إلى مكان فيه أهل أنقرة وجند من قل جند الملك، وعلم منهم أن الملك قد هزم أمام جند الأفشين الذي أدرب إلى تلك البلاد ولقي ملك الروم فقل حده، وشتت جنده. وهو الآن مشتغل بجمع فل جنوده، وحشر من لم يحشر من قبل. وكان أول من ورد عمورية أشناس بجنوده، ثم المعتصم، ثم الأفشين. وجاء رجل مسلم من الأسرى بالمدينة، وأعلم المعتصم بعورة في السور وأراه إياها، فألح المسلمون على السور من ذلك الموضع حتى عوروه وصدعوه وثلموه. وكان أول من قاتل الروم على الثلمة أشناس، ثم تتابع العمل في الحرب إلى اليوم الثاني عشر، فقال بعض قواد أشناس: الحرب في هذا اليوم (يوم الأفشين) أجود منها أمس (يوم أشناس) فأسرها في نفسه. ولما عاد إلى عسكره وترجل له القواد سبهم سبا قبيحا فاضطغنوا عليه، وانصرفوا إلى مضاربهم، وقد باح بعضهم بمكيدة مدبرة على المعتصم وقواده ومنهم أشناس والأفشين وإيتاخ وغيرهم. والذي دبر هذه المكيدة العباس بن المأمون بن هارون الرشيد.

وكان أول من وسوس بهذه المكيدة عُجَيف بن عنبسة من قواد المعتصم، فان المعتصم وجه به إلى قتال ملك الروم، ولم يطلق يده في النفقات كما أطلق يد الأفشين، واستصغر المعتصم شأنه. فأنحى عجيف على العباس بن المأمون إذ سلم لعمه بالخلافة ولم يطلب البيعة لنفسه،

وأن الواجب عليه أن يتلافى أثر العجز الذى عجزه فى أول أمره.

فوجه العباس برجل أديب له عقل وحسن تأت للأمور، فخالط بعض ذوى النجدة، والقدر النابه فى جيوش القواد، وواطأهم على أن يثوروا بقوادهم، وأن يقتلوهم عند أول إشارة، ثم ينتهى الأمر بقتل المعتصم، ويستبد العباس بالأمر. فلما كانت الملاحاة بين أشناس وقواده، تناجوا بالأمر المبيت، وأخبر الذى عنده علم من الأمر من لم يكن يعلم. وزادت مراقبة أشناس لقواده والتضييق عليهم حتى سمع نجواهم بعض الغلمان وطلب قواده أن يُضموا إلى غيره من القواد، وقبض أشناس على بعض قواده، وجاء غلام سمع بعض ما يسرون إلى المعتصم وأفضى اليه بما سمع من عمر الفرغانى، وكان من المقبوض عليهم، فأخذه المعتصم من عند أشناس وسأله عما قاله الغلام. فأنكر وقال إن الغلام كان سكران ولا يدرى ما قلت. فدفع المعتصم الغلام إلى ايتاخ. فأنفذ أحمد بن الخليل من المقبوض عليهم إلى أشناس يقول إن عنده نصيحة لأمير المؤمنين لا يقولها إلا للخليفة المعتصم، فحلف أشناس ليقتلنه بالسياط إذا لم يخبره، فجاء إليه وأخبره بما بيت العباس والقواد والحارث السمرقندى فانفذ أشناس الحارث مقيدا إلى المعتصم وسير أحمد إلى المعتصم فأفضى إليه بجلية الحال. فلم يصدق المعتصم ذلك على القواد لكثرتهم، وأراد أن يستثبت الأمر، فأتى بالعباس وبسطه وسقاه حتى سكر، وأحلفه أن يخبره بالأمر على حقيقته ففعل، ولم يُبق فى نفسه شيئا مما دبر وممن اشترك فى الأمر إلا قاله. فتتبع المعتصم القواد والرؤساء الذين واطئوا العباس على أمره. وكان منهم الشاه بن سهل، وهو من أهل خراسان، وقال له: يابن الزانية، أحسنت إليك فلم تشكر. فقال: ابن الزانية هذا — (وأشار إلى العباس، وكان حاضرا) — لو تركنى ما كنت

الساعة تقدر أن تجلس هذا المجلس ، وتقول هذا الكلام . فأمر به فضربت عنقه ، وهو أول من قتل منهم .

وسلم العباس بن المأمون إلى ايتاخ . فلما ورد الجيش بلاد الاسلام وكانوا بمنبج طلب العباس طعاما فقدم إليه ، فلما أكل منع الماء حتى مات . وعلى الجملة فقد تتبعهم المعتصم وقتلهم جميعا وسمى العباس من حينئذ اللعين ، وأخذ المعتصم أولاد المأمون من سندس فحبسهم عنده حتى ماتوا .

ومن لطيف ما يروى أن محمد بن على الاسكاف كان يتولى إقطاع عجيف فرفعت عليه شكوى ، وهم عجيف بقتله فبال على نفسه من الخوف ، ثم شفع فيه فقيده وحبسه وتركه محبوسا وذهب إلى بلاد الروم ، وقد حفر المعتصم لعجيف بئرا فى بَاعِينَاثا من بلاد الموصل وألقاه فيها وطمها عليه . وخرج الاسكاف من الحبس واستُعمل على باعيناثا — قال : فخرجت يوما إلى تل باعيناثا فاحتجت إلى الوضوء فجئت إلى تل فبلت عليه ثم توضأت ونزلت ، وشيخ باعيناثا ينتظرنى ؛ فقال لى : فى هذا التل قبر عجيف ، وأرانيه ، فإذا أنا قد بلت عليه . وكان بين الأمرين سنة لا تزيد يوما ولا تنقص يوما .

وكانت وفاة أشناس سنة ثلاثين ومائتين لم يحبس ولم يقتل ولم ينكب . ومن الغلط ما نقله ابن تغرى بردى عن الذهبى من أن أشناس توفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين (ص ٢٥٥ ج ٢ النجوم الزاهرة)

* * *

ومع ما كان لأشناس وإيتاخ من البلاء ما أتينا على بعضه ، وما كان لهما من التقدم فى الدولة لم يكن المعتصم راضيا عنهما تمام الرضا ، ولم يكونا واقعين عنده الموقع الكريم اللائق ببلائهما ومنزلتهما .

قال اسحاق بن إبراهيم المصعبى : دعانى المعتصم يوما فدخلت عليه

فقال : أحببت أن أضرب معك بالصوالجة ، فلعبنا بها ساعة ، ثم نزل وأخذ بيدى نمشى إلى أن صار إلى حجرة الحمام ، فقال : خذ ثيابى ، فأخذتها . ثم أمرنى بنزع ثيابى ففعلت ، ودخلت وليس معنا غلام ، فقمت إليه ، فخدمته ودلكته ، وتولى منى المعتصم مثل ذلك ، فاستعفيته فأبى على . ثم خرجنا ومشى وأنا معه حتى صار إلى مجلسه فنام ، وأمرنى فنمت حذاءه بعد الامتناع . ثم قال لى : يا إسحاق ، إن فى قلبى أمرا أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة ، وإنما بسطتك فى هذا الوقت لأفشيه إليك . فقلت : قل يا أمير المؤمنين ، فانما أنا عبدك وابن عبدك . قال : نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا . واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم . قلت : من الذين اصطنعهم المأمون ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيت وسمعت . وابنه عبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم ير مثله ، وأنت ، فأنت والله الرجل الذى لا يعتاض السلطان عنك أبدا (فى ابن الأثير : لا يتعاصى) وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا اصطنعت الأفشين ، فقد رأيت إلام صار إليه ، وأشناس ففشل ، وإيتاخ فلا شىء ، ووصيف ، فلا معنى فيه . فقلت : أجيب على أمان من غضبك ؟ قال نعم ؛ قلت له يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها ، فأنجبت . واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب . إذ لا أصول لها . فقال : يا إسحاق ، لمقاساة ما مر بى طول هذه المدة أيسر على من هذا الجواب .

هذا ما أردت أن أورده فى شأن هذين العلمين اللذين لعبا دورا هاما فى سياسة الدولة العباسية ، ونالا من النفوذ فى الأمور ، والرفعة فى الدولة ما لم ينله أحد إلا قليلا ، ولله عاقبة الأمور ؟